وعلى هذا فالقرآن يتقدم إلينا على أنه صورة فنية مفردة لا نعرف لها شبيهاً موثوقاً به قبل الإسلام ، فاذا كان هذا هو الواقع فكيف يمكن أن تكون هذه الصورة شاهداً من شواهد النثر الفنى فى الجاهلية ، وتكون دالة عليه ، فبيان القرآن إذن مختلف عن بيان الجاهليين وأساليبهم فى التعبير[1] ، وليس معنى هذا أنه كان مختلفاً فى لغته عن لسان قومه الذين جاءهم ليبين لهم ، أو أنه كان غريباً عليهم نابياً عن أذواقهم وأفهامهم ، وهذا يتصل بالنقطة الثانية . إذ أننا لا ننكر أن الجاهليين فهموه وتذوقوه وأدركوا سر إعجازه حين سمعوه ، فقد كان لهم ذوق أدبى وحس بلاغى كونه الشعر والخطابة وغيرهما من فنون القول ، ولكن الفهم والإنشاء شيئان مختلفان ، فليس كل من يفهم أدباً بقادر على أن ينشىء مثل هذا الأدب ، وهل كل متذوق لأسلوب من أساليب البيان قادر على أن يعبر عن نفسه بمثل هذا الأسلوب . فالقدرة على الفهم والاستعداد لذلك شىء والقدرة على التعبير شىء آخر . ذلك أن الاستعداد للفهم لا يحتاج إلى أكثر من قسط من الثقافة أو الذوق الأدبى يعين على فهم مايقال ، فى حين أن الاستعداد للتعبير لا يقف عند هذا الحد ، وإنما يحتاج إلى عوامل أخرى تعين على إنتاج الأدب شعراً كان أو نثراً أو خطابة ، وقد عرف النقاد العرب قدر

---

(١) يقول الباقلانى « ... الذى يشتمل على بديع نظمه للاعجاز وجوه : منها مايرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ... ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما نسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ... » - إعجاز القرآن - ص ٦٣ - ٦٤ القاهرة (١٣٧٠/١٩٥١) .